المعانى، فالفلسفة الخلقية لا يمكن أن تحاول إخبارنا ما الذى ينبغي أن يفعل، ونحن يجب أن نقرر ذلك بأنفسنا، وعلى الرغم من ذلك نجد على الجانب الآخر أن الفلسفة الخلقية ليست دراسة نظرية تمامًا not purely theoretical فمعظم الناس لا يدرسون موضوعاتها لكى يسخرون منها، فالتساؤل المطروح بها ينبع من مشكلة الحياة الواقعية[1]

ثانياً: الحاجة إلى القيم الأخلاقية

إذا كان جان كوكتو عبر عن ضرورة الفن ودوره فى العالم البرجوازى المعاصر بقوله «الشعر ضرورة .. وآهٍ لو أعرف لماذا»[2]. فإن ما يثبت على الفن يثبت بالضرورة على أهمية القيمة الأخلاقية فى الفكر المعاصر، باعتبار أن كل من الفن والأخلاق(*) قيم اكسيولوجية أصيلة، بينهما علاقات فلسفية مشتركة.

لقد فطن برتراند رسل إلى ضرورة وجود القيم الأخلاقية منذ كتب سيرته الذاتية معبرًا فيها عن تلك الدوافع التى قادته إلى البحث فى أسس الرياضة، ونظرية المعرفة، وكذلك فلسفة الأخلاق، حيث يقول «لقد تحكمت فى حياتى انفعالات ثلاثة، بسيطة بيد أنها متناهية فى القوة: الحنين للحب، والبحث عن المعرفة، والإشفاق الشديد على الذين يقاسون ويتعذبون، ولقد تقاذفتنى هذه الانفعالات، كالرياح العاتية فى طريق غير مستقيم فوق بحر عميق من العذاب، يصل إلى حافة اليأس ذاتها»[3]. وذلك كما جاء على لسان جون لويس عن رسل أنه يقول

---

(1) D. D. Raphael: Moral Philosophy, op. cit, p.9.

(2) ارنست فيشر: ضرورة الفن، ترجمة: أسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م، ص7.

(*) يمكن القول أن الخير الأخلاقى هو أساس الخير الجمالي، والقيمة تسمو على المنطق أو الحق. والأخلاق يمكن أن يقال عنها أنها منطق السلوك Logic of Conduct أى أنها تضع فى اعتبارها حالات انسجام الفكر مع المعايير التى يتضمنها، فدراسة الخير وثيقة الصلة بدراسة الجمال، حيث كان اليونانيون لا يفرقون بين الجمال Beauty والخير Good ولم يجعلوا الخير الجمالى Aesthetical Good منفصلاً عن الخير الأخلاقى Ethical Good فالخير والجمال لم يكونا متمايزين، بل الاختلاف بينهما نجم عن تباين التطبيق فى مجال واحد.
انظر- رمضان الصباغ: الأحكام التقويمية فى الجمال والأخلاق، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 1998م، ص46.

(3) برتراند رسل: سيرتى الذاتية، ترجمة: عبد الله عبد الحافظ وآخرون، مراجعة: شوقى السكرى، دار المعارف، القاهرة، 1970م. ص7.

«لم أكتب ذلك بوصفي فيلسوفًا، بل كتبته بوصفي إنسانًا يعانى من الحالة السائدة فى العالم، ويتلمس سبيلاً ما لتحسينها، ويتلهف على التوجه بعبارات سهلة إلى أولئك الذين يكنون مشاعر مماثلة»[1].

من خلال النص السابق للفيلسوف محل الدراسة يتضح أن الحنين للحب، والبحث عن المعرفة، وكذلك الإحساس بأولئك الذين يقاسون ويتعذبون، عبارة عن أسس واضحة لفلسفة الأخلاق لابد وأن تكون متأصلة عند كل إنسان، فالأخلاق بهذه الكيفية ما هى إلا صورة من صور البحث عن الحقيقة، كما أنها تصدر عن باعث عقلي هو الرغبة فى المعرفة الأخلاقية، وذلك يرجع إلى كونها مرشدنا ودليلنا كى نفكر فى النظريات الأخلاقية، لأننا نحن الذين نصنع حالة نفسية متميزة، فهي تعطينا الرسم المنظورى للتفكير والأفعال، وتجعله أفضل انعكاسًا فى كل مكان، كما تعمل على تحسين التفكير[2].

ولكن.. كيف تنبعث الحاجة إلى الأخلاق؟ وما ضرورة وجودها فى المجتمع؟

لقد عبر برتراند رسل عن حاجة المجتمع إلى وجود القيم الأخلاقية بقوله «إن الآدميين ينفعلون وهم أيضًا عنيدون وبهم مسٌّ من جنون، وهم بجنونهم يتسببون لأنفسهم ولغيرهم فى كوارث قد تكون ماحقة. ولكن على الرغم من أن حياة الاندفاع خطرة، إلا أنه يجب المحافظة عليها إذا أريد للوجود الإنسانى ألا يفقد نكهته، فلابد لأي نظام أخلاقى يجعل الناس سعداء من إيجاد نقطة وسط بين قطبى الاندفاع والسيطرة، وعن طريق هذا الصراع الذى يجرى فى أعماق طبيعة الإنسان، تنبعث حاجته إلى الأخلاق»[3].

إن الإنسان لكى يحيا حياة طيبة داخل البيئة الاجتماعية المعقدة التى صنعها، لابد من أن يفرض عليه عامل خارجى، بالإضافة إلى الفضيلة الطبيعية التى تختلف أشد الاختلاف من شخص إلى آخر، وهذا العامل الخارجى هو عامل التوجيه والتحكم، الذى عبر عنه رسل بقطب

(1) جون لويس: رسل، ترجمة: عدنان كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1971م،، ص5.

(2) Harry J. Gensler: Ethics, London and New York, 1998. p.56.

(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص9.

السيطرة، الذى يقل ظهوره كلما نما الإنسان بفكره واكتمل منهجه الأخلاقى[1]. وعليها تبدو الطبيعة البشرية للإنسان محتوية فى داخلها على قطب السيطرة من جهة، ومن الجهة الأخرى يكون قطب الاندفاع، ومن خلال عملية التوفيق بين كل من الاندفاع والسيطرة تنبعث ضرورة فلسفة الأخلاق. لذلك كان الحمقى وحدهم ومضطربو الفكر هم الذين يطلقون لنزواتهم العنان، وكلما عرضت لهم رغبة بادروا بتحقيقها دون التفكير فى أثرها فى الناس، وفيما تخلقه من إحساس داخلى بالرضى أو الضيق أو الألم[2]، فالحياة الطيبة هى التى يلهمها الحب وتقودها الحكمة[3].

إن الإنسان كما رآه رسل أكثر تعقيدًا فى نزعاته ورغباته من أى حيوان آخر، وتنشأ الصعوبات التى يواجهها من خلال هذا التعقيد، فهو ليس اجتماعيًا تمامًا مثل النمل والنحل، ولا هو انفراديًا تماما مثل الأسود والنمور، بل هو حيوان شبه اجتماعى، حيث أن بعضًا من نزعاته ورغباته اجتماعى فيها، والبعض الآخر انفرادى. يبدو الجانب الاجتماعى فى طبيعة الإنسان البشرى فى اعتباره الحبس الانفرادى عقوبة بالغة الشدة، ويبدو الجانب الآخر فى حبه للاستقلال بأموره الخاصة وعدم استعداده للتحدث إلى الغرباء[4].

يرى رسل أن الناس الذين يعيشون فى مناطق مزدحمة مثل لندن ينمو لديهم جهاز دفاعى من السلوك الاجتماعى الذى يقصد به حمايتهم من المغالات فى الاتصالات الآدمية غير المرغوب فيها، فترى الناس الذين يجلسون بجاب بعضهم البعض فى سيارة عامة أو قطار من قطارات الضواحى لا يتحدثون فى العادة إلى بعضهم، ولكن إذا وقع شيء مثير مثل غارة جوية أو حتى ضباب كثيف أكثر من المألوف، يحس الغرباء فورًا أنهم أصدقاء، ويبدأون فى التحدث إلى بعضهم دون تحفظ. هذا النوع من السلوك يبين لنا مدى التذبذب بين الجانب الشخصى

(1) جون كارل فلوجل: الإنسان والأخلاق والمجتمع، ترجمة: عثمان نويه، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت، ص24.

(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، ترجمة: نظمى لوقا، دار المعرفة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1959م، ص96.

(3) برتراند رسل: مختارات من أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص123.

(4) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص10.

والجانب الاجتماعى فى الطبيعة البشرية، ولأننا لسنا اجتماعيين تمامًا فنحن فى حاجة ماسة إلى وجود الأخلاق التى توحى لنا بالأهداف، وكذلك إلى وجود قواعد أخلاقية تفرض علينا قواعد التصرفات. أما النمل والنحل فليس فى حاجة إلى شيء من هذا، فهو يتصرف دائمًا بما تمليه عليه مصلحة الجماعة[1].

ولكن لو استطاع الإنسان أن يخضع نفسه للصالح العام إلى الحد الذى تفعله النملة، فلن يشعر باكتفاء كامل، بل سيدرك بأن جانبًا من طبيعته يذوى، فلذلك لا يمكن القول بأن الجانب الانفرادى فى طبيعة الإنسان أقل قيمة من الجانب الاجتماعى. ويظهر الجانبان بوضوح فى الكتابات الدينية متصلين فى وصيتي الإنجيل: أن نحب الله وأن نحب جيراننا، أما بالنسبة لأولئك الذين كفوا عن الإيمان بإله الأديان التقليدية فقد يكون من الضرورى تعديل العبارات وفق أفكارهم، ولكن ليس هناك أية ضرورة لإدخال أى تغيير على القيم الأخلاقية، فالمتصوف والشاعر والفنان والمكتشف العلمى فى أعماقهم انفراديون، وقد يكون ما يفعلونه مفيدًا لغيرهم، ولكنهم فى اللحظات التى يكونون فيها أكثر ما يكونون حياة وأتم تحقيقًا لما يحسون أنه رسالتهم، فإنهم لا يفكرون فى بقية الجنس البشرى بل يتابعون خيالاً[2].

وهنا لابد عند رسل أن نعترف بوجود عنصرين متميزين فى التفوق البشرى، أحدهما اجتماعى والآخر انفرادى، فأي نظام أخلاقى يدخل فيه أحدهما دون الآخر يكون نظامًا أخلاقيًا غير مرضٍ وغير كامل[3]. وذلك على النقيض مما قاله الفيلسوف الأمريكى «هنرى ديفيد ثورو» Henry David Thoreau (1817 - 1862) صاحب فكرة الفردية المتطرفة فى تاريخ الفلسفة الغربية، فقد رأى «ثورو» أن الفرد من حقه باعتباره فردًا أن ينسلخ بمفرده عن سائر الجماعة إذا أراد ذلك، فلا يخضع للدولة إذا لم تصادف هواه، فالفرد على هذه الأرض مملكة وحده، هو بذاته وبمفرده سلطة لها سيادتها، فتراه يقول: «إن القول بأن الفرد خلق

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(3) المصدر السابق: ص11.

ليعيـش فى مجتمع أكذوبة كبرى، فالعكس هو الأدنى إلى الصواب، فقد خلق المجتمع من أجل الفرد»[1].

إن تأكيد رسـل على أهمية المجتمع فى تحديد السـلوك الإنسـانى، يجعل الإنسـان فى حاجه ماسة إلى بنى جنسه، فطبقًا لما قاله رسل بأن الإنسان فى أخلاقه عبارة عن حيوان شبه اجتماعى، فـلا هـو فردية متطرفة كما عبر عنها «هنرى ديفيد ثورو»، ولا هو كائن عديم القيمة وسـط الأحـداث الصاخبة داخـل مجتمعه، ولكن العلاقة قائمة بين الفرد والمجتمع. فالإنسـان حيوان يعيش باسـتمرار فى صحبة غيره من بنى الإنسان، ويكاد يعتمد فى سنواته الأولى على الآخرين اعتمادًا كليًا، لذلك كانت لديه ميول طبيعية كثيرة تؤهله للحياة الاجتماعية المتناسقة ولحماية الصغير والضعيف[2].

لقـد أكد رسـل على أن الحاجة إلى الأخلاق فى الشـئون البشرية لا تنشـأ فى الإنسـان عن اجتماعيته الكاملة أو عن فشله فى أن يرتفع بنفسه إلى أفاق رؤئ داخلية فحسب، بل أنها تنشأ أيضًـا عن فرق آخر بينه وبين الحيوانات الأخرى. فالتصرفات البشرية لا تنبثق كلها من نزعة مبـاشرة، بل أنها قابلة لأن تخضع للغرض الواعى، وأن توجه بواسـطته، وتملك بعض الحيوانات العليا هذه القدرة إلى حد ضئيل. فالكلب يسمح لصاحبه أن يؤلمه عند إخراج شوكة من رجله، وقـد فعلت قرود «كوهلر» بعض الأشـياء غير الغريزية فى محاولتها الوصـول إلى الموز، ومع ذلـك فإنه مما ينطبق حتى على الحيوانات العليـا أن نقول أن معظم تصرفاتها من وحى الاندفاع المباشر، ولا ينطبق هذا على الإنسان المتمدين[3].

كـما أكد فيلسـوفنا- فى كتابه «نحـو عـالم أفضل»[*] الميل الغريزى هو الشـعور الذى

(1) زكى نجيب محمود: حياة الفكر فى العالم الجديد، دار الشروق، الطبعة الثانية، بيروت، 1982، ص ص 65:68.

(2) جون كارل فلوجل: الإنسان والأخلاق والمجتمع، مرجع سابق، ص24.

(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص11.

(*) يشير المؤلف أن العنوان الإنجليزى لهذا الكتاب يحمل اسم Principles of Social Reconstruction وقد صدر عن مؤسسة «جورج ألان» بالولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة السادسة 1920م. وقد وجد المؤلف أن لهذا الكتاب ترجمتان عربيتان، الأولى صادرة عن المركز القومى للترجمة التابع للمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، وتحت عنوان «نحـو عالم أفضل»، وقد قام بالترجمة كل من: دريني خشبة، وعبدالكريم أحمد، أما الترجمة الثانية=

يجعلنا نجد سرورًا وبهجة فى صحبة شـخص آخر، ونرغب فى التحدث، والعمل واللعب معه. وغايـة ما يصل إليه هذا الميل هو الحب بين الرجل والمرأة، وهو فى أضعف صوره ذو أهمية من الناحية السياسـية. ووجود شـخص ممن يثيرون فى النفس نفورًا غريزيًا يجعل الإنسـان أكثر إقبالاً من أى شـخص آخر من الموجودين، فإن المسـيحى الذى لا يحب اليهود يقبل أى مسيحى آخر فى حضرة اليهودى، وفى الصين أو فى غابات أفريقيا يبتهج الرجل الأبيض لوجود أى رجل أبيـض آخر ويرحب به. فإن النفور الغريزى المشـترك هو أكثر المصادر التى ينشـأ عنها ميل غريزى[1].

يرى رسل أن هناك اعتقادًا شائعًا بأن كل ما هو غريزى فينا لا يمكن تغييره، ويجب أن يقبل على علاته، وأن يسـتغل أحسـن ما فيه بقدر الإمكان، وهذا غير الواقع تمامًا. فلا شك أن هنـاك مزاجًا أصيلاً فى كل منا يختلف باختلاف الأشـخاص، وهو يتفاعل مع الظروف الخارجية مكونًا شـخصية الإنسـان، ولكن حتـى الجزء الغريزى فينا قابل للتشـكيل، فقد تغـيره الاعتقـادات، أو الظروف المادية، وقد تغـيره الظروف الاجتماعيـة والنظم القائمة، فغالبًـا ما يكون للهولندى نفس المزاج الأصيل الـذى للألمانى، ولكن غرائزهما تختلف تمامًا بعد أن يبلغا مبلغ الرجال بسبب الهولندى ليس لديه الروح العسكرى والشعور بالكبرياء لدولة كبرى مثل الألمانى، وكذلك من الواضح أن الغرائز لدى العزاب تختلف اختلافًا عميقًا عنها لدى المتزوجين.

يؤكد رسل أن كل الغرائز تقريبًا قابلة للتشكيل فى قوالب مختلفة بحسب المتنفس الذى يتهيـأ لكل منها، ونفـس الغريزة التى تـؤدى إلى الخلق الفنى والعقلى، قد تـؤدى إذا اختلفت

= لهذا الكتاب فهى الترجمة البيروتية الصادرة عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، لعام 1987م، وقام بترجمتها الدكتور: إبراهيم يوسف النجار، تحت عنوان «أسس لإعادة البناء الاجتماعى». ولكن عندما قام الباحث بمراجعة الترجمتان مع النص الإنجليزى للكتاب، وجد أن الترجمة الصادرة عن المركز القومى للترجمة هى الأفضل، وذلك من حيث الصياغة اللغوية، والصياغة الفلسفية للنصوص الواردة، وأيضًا الدقة فى التعبير، وإن كانت الترجمة البيروتية تحمل الترجمة الدقيقة للعنوان... المؤلف.

(1) برتراند رسل: نحو عالم أفضل، ترجمة ومراجعة: دريني خشبة، عبدالكريم أحمد، العدد 1155، المركز القومى للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2007م، ص32.

الظـروف إلى حب القتال، فلا معنى لأن نعتبر تصرفًا معينًـا أو اعتقادًا معينًا غير قابل للتغيير لمجـرد أن الدافـع إليه غريزة مـن الغرائز، وينطبق هـذا الميل الغريـزى والنفور الغريزى لـدى الناس، كما ينطبق على جميع الغرائز الأخرى، لذلك كان الاعتقاد الشـائع بأن الطبيعة البشريـة لا تقبل التغيـير هو اعتقاد باطل، فكلنا نعلم أن طباع معارفنا وطباعنا تتأثر إلى حد كبير بتغير الظروف[1].

إن النظم الأخلاقية والقواعد الأخلاقية فى فلسفة برتراند رسل تكتسب قوة تأثيرها بسبب القدرة على التصرف بقصد تحقيق هدف معين، حيث أنهما يميزان بين الأغراض السيئة والحسنة مـن ناحية، ومن ناحية أخـرى يميزان بين الوسـائل المشروعة وغير المشروعـة فى تحقيق هذه الأغراض، بيد أنها من السـهل عندما نتناول الإنسـان المتدين أن نوجه اهتمامنا أكثر مما ينبغى إلى الغرض الواعى، وأن نغالى فى التقليل من أهمية النزعة التلقائية. ورجال الأخلاق يميلون إلى تجاهل مطالب الطبيعة البشرية، فإذا فعلوا ذلك فإنه من المحتمل أن تتجاهل الطبيعة البشرية مطالب رجال الأخلاق[2].

إنه على الرغم من كون الأخلاق فردية عندما تتناول الواجب تجاه الأخرين، فإنها تواجه أصعـب معضلاتها عندمـا تتناول الجماعـات الاجتماعية. ولكن على الرغم مـن ذلك لا ينبغى الانتصار للفرد على حساب المجتمع، أو للمجتمع على حساب الفرد، لأن أخلاق الفرد والمجتمع لا يمكـن الفصل بينهما بـأى حال من الأحوال، فلا قيام للحياة الخلقية بدون هذا الاسـتقطاب الحاد بين الأنانية والغيرية أو بين «تحقيق الذات» و«التضحية بالذات» فليس فى وسع الموجود الأخلاقى أن يحيا دون هذا الصراع الروحى المستمر بين قطب «الأنا» وقطب «الغير» بل دون هذا التوتر النفسى بين الرغبة فى تحقيق الذات، والنزوع نحو التضحية بالذات. وربما كان هذا التوتر نفسه هو التربة الوحيدة التى تنمو فيها الحياة الخلقية، فإنه لمن الواضح أن شخصية كل فرد منا لا تتكون إلا عبر تلك الخبرات الروحية التى تلتقى فيها «الأنا» بـ«الأنت» وتتصارع فيها «الأنا» مع «الغير»[3]. وهكذا نخلص إلى القول بأنه لا قيام للحياة الخلقية بدون مشـاعر

(1) المصدر السابق: ص ص 35،36.
(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص11.
(3) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص48.

«احترام الذات» و«احتقار الذات» التى تتولد لدى الفرد من خلال تعامله مع الآخرين، واحتكاكه بهم، وتعاطفه معهم[1].

ثالثًا: السلطة والأخلاق

إلى أى حد انتقلت الأفكار الدينية إلى فلسفة الأخلاق؟ وما علاقة الدين كسلطة إلهية تفوق الطبيعة البشرية بماهية الأخلاق؟ وما الكيفية التى يؤثر بها الضمير كأساس داخلى للفكر الفلسفى الأخلاقى؟ وما دور السلطة فى فلسفة الأخلاق؟

ليس من الغريب أن يتناول الباحث فى دراسته موضوع السلطة ضمن عناصر النظرية الأخلاقية، وذلك لأن السياسة والأخلاق متصلتان دون أن تندمجان، فلم يكن أفلاطون يرى بين الواحدة والأخرى سوى فرق درجات السلم. فالعدالة نفسها ينبغى أن تسود الفرد والمدنية، والخير نفسه ينيرها، أعنى بذلك- إخضاع السياسة للأخلاق[2].

من هنا بدأ رسل موضوعه بالبحث فيما تعنيه كلمة «السلطة» authority، فيرى أن هناك ما يسمى بالسلطة البشرية، وكذلك السلطة الدينية، وهى تكون للمتمسكين بالتعاليم الدينية، وأيضًا توجد سلطة الحقيقة، وسلطة الضمير. وفى النظم الأخلاقية التقليدية تتحد جميع السلطات معًا، فتكون السلطة على هيئة «لماذا يجب علي أن أفعل هذا أو ذاك» فنقول «لأنها مشيئة الله، وأن هذا ما يحبذه المجتمع، أو لأن ذلك يكون بمثابة الحقيقة الأبدية التى يجب عليك أن تفعلها، أو قد تكون الإجابة أن ضميرك لو استمعت إليه لوجدته يقول لك: «ينبغى عليك أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا»[3].

يرى رسل أن موضوع مناقشة السلطة فى الأخلاق يتبلور فى سؤالين:

(أ) لماذا ينبغى علي أن أفعل ما تقول أنت أنى أفعله؟

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2) أندريه كونت- سبونفيل: الفلسفة، ترجمة: على أبو ملحم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008م، ص ص99-98.

(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص105.